The place in the novels of Nawzat Shamdin

Maysaloon Nouri Nawaf, (PHD)
General Directorate of Anbar Education
nwrymyslwn@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i142.3795

Abstract:

The city of Mosul represents the place from which Nawzat Shamdin found his characters. The novelist attempted a direct, clear, and sharp description of places and its variations. The identity of the place was the topic that the novelist dealt with as he tried to give the most accurate details about the blades, relying on the description and his extensive memory of his city. He was able to paint with his words the difficult condition that Mosul was subjected to over time.

Keywords: place, time, personality, Nozt Shamdin

المكان في روايات نوزت شمدين

م. د. ميسلون نوري نواف
المديرية العامة لتربية الأنبار

(مُلَخَّصُ البَحث)

تمثل مدينة الموصل المكان التي انطلقت منها شخصيات روايات الروائي (نوزت شمدين) وكانت هوية المكان الموضوع الذي عالجه الروائي، إذ حاول اعطاء أدق التفاصيل حول الأمكنة وأنواعها معتمداً على الوصف والذاكرة القوية وبذلك رسم بكلماته ما تعرضت له الموصل من ظروف صعبة وظلم عبر الزمن، وقدم لنا موضوعات مختلفة لكنها جديدة ومؤثرة استطاعت أن تتسلل إلى القارئ وتؤثر فيه فحققت بذلك نجاحاً وانتشاراً.

الكلمات المفتاحية: المكان، الزمن، الشخصية، نوزت شمدين

المقدمة: Introduction

لم تكن قضية العلاقة بين الأدب والمجتمع مُثارةً على هذا النحو قبل مرحلة الستينيات، بل كانت قضية الأدب البيئي الذي يعني الاقليمية في دراسة الأدب التي كانت سائدة في حقل الدراسات الأدبية، أما فيما يخص الرواية فقد وجه الكثير من النقاد بضرورة أن تكون الرواية في خدمة المجتمع، فالرواية لا زالت في العالم العربي والعراقي لصيقة بالتحولات التي

تطرأ على الواقع، باعتبارها إحدى الأجناس الأدبية التي وجد النقاد والدارسون ضالتهم فيها، لأنها جسر للتواصل والتحاور بين الآداب المختلفة. (السيد، ٢٠١٣: ٨١)، فالرواية أدباً واقعياً وحوارياً قابلاً على التفاعل مع نصوص سابقة وحاضرة، ينتجها المبدع ويحولها شكلاً ومضموناً عن طريق رؤيته السردية متفاعلة مع مجتمعه. بعد أن يقدم في عمله السردي عدة صراعات بين الشخصيات فضلاً عن رؤيته فينقلها بوعي وإدراك كاملين بغية وصولها إلى المتلقي بصورة خيالية أو واقعية مجسدة للواقع، واختيارنا للروائي الشاب (نوزت شمدين) جاء بسبب التحولات التي تأثرت بها الرواية في الوقت الحاضر، إذ أخذ الروائي من مدينة الموصل المكان الذي دارت فيه أحداث رواياته، تلك المدينة التي عانت من الضياع والظلم في زمن النظام السابق، وبعد السقوط سنة ٢٠١٤ وقد تعززت الرؤية بعد الاطلاع على رواياته، حيث نتجت فكرة الموضوع، حتى بلغ استواءه فكرة ودراسة تحليلية للروايات.

والرواية هي فن الاعتناء بالحياة انعكاساً؛ لأنها الانصهار الفني العجيب بين الذاكرة والمخيلة، وهي واقعاً مسروداً على وفق اسلوب ما تحمل الكثير من التواريخ والأحداث والأمكنة وشخصيات رئيسية وثانوية وجميع هذه العناصر تحمل رسالة كلية للمتلقي، ومحصلتها النهائية واقعاً منظماً على وفق إرادة الروائي.

أهمية المكان في الرواية: The importance of place in the novel

للمكان أهمية كبيرة في الرواية، فأي حدث لا يمكن وقوعه ما لم يكن ضمن اطار مكاني، وهو الذي يخلقه الروائي في نصه عن طريق الكلمات ويجعل منه شيئاً خيالياً. (عثمان، ١٩٨١: ٩٤) (Othman، ١٩٨١: ٩٤).

إذ يرى ميشيل بوتور "إنّ قراءة الرواية رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ، فمن اللحظة الأولى يفتح فيها القارئ الكتاب ينتقل إلى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي"(قاسم، ١٩٨٤: ٧٤).(Qasim, 1984: 74)

والمكان هو المساحة التي تقع فيها الأحداث فيكون إطاراً محتوياً متفاعلاً مع بقية العناصر البنائية الأخرى (النصير، ١٩٨٦: ٥٦) ((Al-Nasayr, 1986: 56. والروائي يتعامل مع المكان بطريقتين أما زمنياً فيخلق العمل الفني ويصوغ دلالاته، أو مكانياً تشكيلياً فيحاول إظهار المكان ومكوناته مع الأشياء في لحظات سكونها أو في انات الزمن المتصلة، وهناك من قال بأن الزمان والمكان في حركة دائمة لا ينفصلان كالفيلسوف (صموئيل الكسندر) (العاني، ٢٠٠٠: ٥٩)(.(Al-ani, 2000: 59

فالتعرف على المكان يموقع القصة في إطار محدد يكسبها الوجود الفعلي في الزمان والحيز أما فقدانه فيؤدي إلى فقدان الفعل الأدبي وخصوصيته واصالته (موسني، ٢٠٠١: ٥٠) (Musni، ٢٠٠١: ٥٠) (باشلار، هلسا، ١٩٨٠: ٥) (Bachelar, Halsa, 1980:

(5. وقد أطلق عليه النقاد عدة تسميات فـ(سعيد يقطين) يسميه (الفضاء) ويرى أن الفضاء أعم من المكان لأنه يشير إلى ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافي وإن كان أساسياً يتعدى المحدد والمجسد (يقطين، ١٩٩٧: ٢٤) ((Yaqtin, 1997: 24. أما الدكتور عبد الملك مرتاض فيطلق عليه اسم (الحيز) ويرى أن الحيز ينصرف إلى النتوء والوزن والثقل والحجم والشكل، في حين أن العمل الروائي يقتصر على الحيز الجغرافي وحده كما يقول (مرتاض، ١٩٩٨: ١٤١) (.(Murtaz, 1998: 141

وللمكان أهمية في انتاج الشخصية وتحديد ملامحها، ويسهم في رفع الأحداث وتطويرها، وتغيير مسارها، إذ يرافق البطل في انتقاله من مكان لآخر، مما ينسحب على الأحداث، التي تبقى رهينة الحياة النفسية للشخصية (اوئيليه، ١٩٩١: ٩٤)(Aoa'ileih, 1991: 94). ويرى الناقد (غالب هلسا) بأن المكان هو العمود الفقري الذي يربط اجزاء الرواية بعضها البعض، وقد يستعيد الروائي أسماء أماكن حقيقية لإيهام القارئ بحقيقة تلك الأحداث (هلسا، ١٩٨٩: ٩) (Halsa, 1989: 9) ويقف الدكتور (شجاع مسلم العاني) على أربع أنواع للمكان وهي:

١- المكان المسرحي ويتميز بخصائص منها شعوب المكان والتحكمية في تصويره، والعزلة لها التواصل هي السمة الواضحة للمكان السلبي، فضلاً عن خضوعه للأحداث والشخصيات وتابع لها.

٢- المكان التاريخي ويقصد به المكان الذي له بعد زمني يحاول فيه القاص إظهار التغيير الذي يحدثه الزمن في بقعة مكانية معينة.

٣- المكان الأليف كل مكان عشنا فيه وشعرنا بالدفء والحماية ويعد البيت أشد أنواع هذا المكان ألفة.

٤- المكان المعادي وهي الأماكن التي يعيش فيها الإنسان مرغماً كالسجون والمعتقلات والمنافي (العاني، ٢٠٠٠: ٢٣) .(Alani, 2000: 23)

ومهما كانت الأمكنة عند النقاد، فالروائي (نوزت شمدين) اتخذ من مدينة الموصل فضاء رواياته، فعبر بقلمه الواقعي عن هموم تلك المدينة، واستطاع أن يمنح في ذهن المتلقي تقنيات السرد ومراوغاته إلى تكثيف الاحساس بشفافية الحاجز الفاصل بين التخييل الروائي في احداث الروايات وبين التوثيق للأحداث الواقعية.

يقدم لنا الروائي (نوزت شمدين) في روايته (سقوط سرداب) بطله (ثائر) الذي تدور حوله الرواية، فهو أخ لـ(خمس بنات) تخشى عليه والدته من المصير الذي لاقى والده في أثناء حرب ينينات بعد أن ذهب إلى الحرب ولم يعد إلى عائلته كما ادعت ذلك في مدينة الموصل، فتخفيه في السرداب تحت المنزل، وتعزله عن الحياة، ليعيش الشاب راصداً

الأخبار من خلال الراديو، وما تنقل إليه والدته أخبار مدينة الموصل عند نزولها إليه كل يوم جمعة وبذلك تحول المكان الأليف وهو بيته إلى مكان مغلق معادي يشعر فيه ثائر بالخوف والقلق "في الساعة الثالثة... من كانون الثاني ١٩٩١، ايقظني دوي انفجار قوي هزني مع السرداب بعنف. بعدها بثواني ارتفعت أصوات صفارات الإنذار، ووقعت انفجارات متلاحقة، قريبة وبعيدة... فقدت خلالها بوصلتي ركضت كالمخبول مرتطماً بالجدارين الإسمنتي والخشبي بين بابي السرداب والحمام موقعاً الأشياء"(شمدين، ٢٠١٥: ٣٠) (Shamden, 2015: 30)

والمكان الذي يجلس فيه (ثائر) على الرغم من بعد السلطة عنه إلاّ أن أشبه بقبر مغلق ضيق لا يستطيع أن يتواصل مع البشر فحياته تدور داخل حلقة ذاتها وما أشبه الليل بالنهار. ولا يقدر أن يرجع إلى حياته الطبيعية لأنه هارب من الخدمة الإلزامية وأن عقوبة الهروب هي الاعدام رمياً بالرصاص أو العقوبة بطرائق أخرى "عادت أجواء الرعب إلى السرداب يوم الخميس ٢٥ اب ١٩٩٤، عبر محطة العراق... القاضي بقطع صولت الأذن لكل من تخلف عن الالتحاق بالخدمة العسكرية لأيام معدودة أو هرب عن تأديتها أو أوى أياً منهما أو تستر عليه"(شمدين، ٢٠١٥: ٩٠) (Shamden, 2015: 90)

ومن المكان المعادي الذي يعيش فيه البطل (ثائر) هناك المكان التاريخي الذي يذكره في سرده وهو (منارة الحدباء) العريقة التي تتنير مدينة الموصل ويذكر معها الأقليات التي تسكن المدينة من المسيحيين واليهود والايزيديين، فالموصل احتضنت مختلف الطوائف والأقليات على مرَّ العصور "جميل أفندي كان محبوب المسيحيين والايزيديين في الموصل، كان يذهب إلى أماكنهم المقدسة في أعيادهم داخل المدينة أو في قرقوش وبرطلة والشيخان، ويستقبل في بيته في منطقة الميدان العشرات منهم في عيدي الفطر والأضحى كان يحكي عن المسيحي عبود الطنبورجي الذي اصلح منارة الحدباء "(شمدين، ٢٠١٥: ١٣٣) (Shamden, 2015: 133)

وبهذا يعمد الروائي إلى تصوير مدينة الموصل بأنها مدينة متلاحمة اجتماعياً بين المسلمين والأقليات الأخرى، إذ تربط بينهم الأخوة والمحبة والتراحم.

وقد أفاد الروائي من التقنيات الجديدة للسرد، وجعل التاريخ عنصراً من عناصر تجديد الخطاب الروائي، فأفادا من أحداث التاريخ الفعلي للمجتمع والأحداث الإنسانية التي وقعت فوثّق التواريخ كما هي وادخلها في سرده "يَوم الأثنين ٢١ تشرين الأول ٢٠٠٢ أصدر... عفواً عاماً اطلق بموجبه سراح السجناء والموقوفين جميعاً بمن فيهم المحكومون بالإعدام.... فجأة أصبحت السجون خالية، ولم يبق في العراق سجينٌ غيري "(شمدين، ٢٠١٥: ١٥٦) (Shamden, 2015: 156) إنّ النص يوضح عمق الكآبة التي يدفع بها الواقع بمرارات

الزمن، حيث الإنسان البسيط أصبح مسجوناً في سردابه، أما المجرم فقد اطلق سراحه وحصل على حريته على الرغم من أخطاءه وجرائمه، وبهذا نقل لنا الروائي احداث عراقية خالصة بأجوائها وهمومها.

وتمر الأحداث ويحتل الأمريكيون وحلفاؤهم العراق، ويسقط النظام ليظهر (ثائر) إلى العالم بشعره الطويل ولحيته، ليبحث عن الحرية لكنه يُصدم بأن مدينته قد أصابها الفوضى هي وبقية المدن العراقية "شاهدت ألسنة اللهب خارجة من نوافذ دائرتي الأمن والزراعة المتجاورتين، وحشد من المتهمين ينتظرون انطفائها.... وعلى بعد مئة متر كانت آلاف من صفحات الكتب الممزقة تتلوى على الشارع والرصيف الموازيين للمكتبة المركزية العامة" (شمدين، ٢٠١٥: ١٦٦) ((Shamden, 2015: 166) ولم يكن السرداب الذي بمثابة سجن إلى ما هو أوسع منه هو العراق، فالمكان ليس سوى رمز لفقدان حريته وشعوره بالاستغراب من مشاهد الدمار الذي حلَّ بالعراق، أما الناس فكانوا يشبهون البطل من حيث المظهر، وكأنهم خرجوا للتو من سجون سرية كالذي كان فيه.

إنّ خيبة (ثائر) الذي كان يحلم بالحرية لسنوات في مكانه الضيق السرداب ازدادت بعد خروجه منه، لذلك قرر النزول إلى السرداب مرة أخرى، ليواجه مصيره المجهول نحو قبره المظلم. سلمت جسدي لجاذبية السرداب التي سحبتني إليه باشتياق، فهبطت الدركة الأولى، والثانية، توقفت في الثالثة والتفتتُ إلى أمي مع أخوتي. أزحت الشعر عن وجهي قليلاً وقلت لها بصوت فيه غلظة:

- اغلقيه ورائي "(شمدين، ٢٠١٥: ١٧٠) (Shamden, 2015: 170)

فقصة الرواية أعطتها بنية فنية خاصة قربتها من المتلقي الذي اندمج مع أحداثها وتفاعل معها. وفي رواية (شظايا فيروز) يقدم لنا الروائي (نوزت شمدين) بطله (مراد) الشاب المسلم من قرى غرب سنجار (نينوى)، الذي يقع في حب فتاة بسيطة ايزيدية من ديانة مختلفة عن ديانته، وبسبب اختلاف الدين يطر إلى مراقبتها والنظر إليها من بعيد، ويربط قصة الحب العذري هذه بسقوط الموصل مطلع شهر آب ٢٠١٤ على يد الجماعات الارهابية. عندما هاجمت قرى سنجار، وارتكبت مجازر بحق رجال الدين والايزيدين، لذلك يضطر (مراد) بأن ينتمي للجماعات؛ للبحث عن حبيبته (فيروز) بمساعدة (الحاج بومه) رجل من أهالي الموصل يعمل دفان في المقابر، والذي يرفض مغادرة مدينة الموصل بعد سقوطها.

انها المكان الأليف الذي عاش فيه، فيقول عنها: "السبب هو عشقي لهذه المدينة وارتباطي الوثيق بكل جزء منها ومغادرتي لها تعني موتي بلا أدنى شك... الموصل ورطة كبيرة لمن يحبها لأنها تظل ملتصقة بروحه مهما كان شكل الحياة قاسياً فيها وظالماً وأياً

كانت قوميته أو معتقده، كل من وفد إليها على مرَّ السنين انصهر فيها ."(شمدين، ٢٠٠٧: ١٦١).(Shamden, 2007: 161)

فالإنسان هو الكائن الأكثر تقديراً للمكان، إذ يتفاعل الشخص مع المكان من خلال ايجاد دعائم الاستقرار، ويشعر الإنسان بالحنين الصادق عندما يغادر وطنه وهذا دليل على قوة الارتباط وصدق الانتماء إليه (الخزعل، موقع نت: ٥٤١)(Khazal, a website: ٥٤١). وإذا كانت المدينة المكان الواسع الذي يرتبط فيه الكاتب وبطله (الحاج بومه) فهناك المكان المغلق الذي تدور فيه أحداث الرواية فيصف المكان بتفصيلاته على لسان بطلته (فيروز) "ادخلتنا غرفة صغيرة في الطابق الأعلى مزدحمة بالحقائب والدواليب – أشارت بقبضة يدها إلى زاوية بين النافذة والجدار وقالت بغضب شديد: ستخمدان هناك بلا حراك ولن تخرجان إلاّ بعد أن تسمعان صوتي "(شمدين، ٢٠٠٧: ٣٢٣) (Shamden, 2015: 323).

والغرفة ما هي إلاّ مكان معادي للبطلة لا تستطيع الهرب منه بعد أن فقدت حريتها وكرامتها وحرمت من أبسط حقوقها بسبب كونها ايزيدية من ديانة مختلفة عن الجماعات الارهابية التي تدعي الدين الإسلامي.

ويدخل الروائي المشاهد المؤلمة إلى روايته ومنها قطع رأس الثور المجنح في مدينة النمرود الأثرية "كان أبو رواحة ما زال منتشياً بأصداء ظهوره في نشرات الأخبار العالمية وهو يقطع بمنشار كهربائي رأس ثور مجنح في مدينة النمرود الأثرية قبل تفجيرها.... قال وضاح: قطعة صغيرة أخرى وتصبح الأمور غاية في الروعة... القطع الكبيرة ليست ثقيلة الحجم فحسب بل ثقيلة في البيع والتصريف، أما الصغيرة المكتملة فمباركة وتجلب الرزق الوفير"(شمدين،٢٠٠٧: ٢٥١– ٢٥٢) (.(252–251 :Shamden, 2007

ويجعل الروائي (نوزت شمدين) قصاصات الأحداث الواقعية وما تعرضت له مدينة الموصل الأثرية من ظلم وتدمير وضمنها في عمله الروائي من أجل خلق عمل فني متكامل، فيوظف الكلمات في التعبير عما يدور في رأسه من ذكريات وحنين للمدينة مع إضافة ما تعرضت له من ظلم وتغييب لمعالمها وتراثها القديم والروائي حرص على أن يقدم شخصيات ونماذج من أبناء الموصل ومنها شخصية (الحاج بومه) كما ذكرت الذي لم يعانق المكان حتى بعد سقوطه وخاطر بحياته من أجله "هذا ليس مكانكم الموصل. لن تكون ابداً جزءاً من دولتكم الكارهة للحياة. قال الحاج بومه فرد عليه القاضي بغضب متجنباً النظر إليه الزم الصمت يا بومه فليس مثلك من يتحدث عن الحياة "(شمدين، ٢٠٠٧: ٢٥٦) (Shamden, 2007: 256)

لقد عشقت الشخصية المكان إلى أن صار قبرها الواسع والمظلم معاً. أما الشخصيات الايزيدية فكانت بلا حول ولا قوة داخل الأماكن المغلقة تتنقل من مكان إلى آخر ومن بيت إلى بيت وسط الحراسة والمهانة والظلم، وعلى الرغم من المحاولة والهروب من المكان الصغير إلاّ أن المكان الأكبر لا زال تحت ظل الارهاب "قالت فريال حين بلغنا الشارع الرئيسي! نحن في شرق الموصل وعلينا الآن ايجاد سيارة تنقلنا إلى المنطقة التي فيها الجامعة تلعثت سريعاً ثم قالت وهي غير متأكدة: ربما علينا الذهاب إلى الجانب الآخر " (شمدين، ٢٠٠٧: ٢٧٨) (" .(Shamden, 2007: 278) لزيارته طوال الأسبوع، كانوا يدخلون ويخرجون وأم القعقاع ترافقهم وهي مغطاة بنقابها الأبيض. تفتح لهم الطريق بآيات قرآنية وتودعهم بالأدعية بينما أنا وفريال محبوستان في الحجرة والمفتاح بحوزتها "(شمدين، ٢٠٠٧: ٢٧٤) (.(Shamden, 2007: 274)

فالبيت جسد وروح الإنسان الأول إلاّ أنه هنا مكانه العادي الضيق فالروائي جسد أمكنة (المدينة، الشارع، البيت، الحجرة) تبعاً لمجتمعه وثقافته، وادخل عناصره الواقعية إلى روايته المتخيلة من أجل إضافة صيغة جمالية فنية، لأن تلك الأماكن مرتبطة بشخصياته وأحداث روايته. وفي رواية (ديسفرال) ينقل الروائي (نوزت شمدين) الحياة الاجتماعية لمدينة الموصل، فيروي لنا عن عائلة (سليم) المرتبطة بالقرية وتقاليدها، ويصف لنا المكان الأليف الواسع الذي تعيش فيه "كان منزلها نسخة مقاربة لمسكن العائلة الكبير في قرية النور بطابقين وحديقة امامية وباحة واسعتين وجدران عالية، تحولت حديقته إلى حظيرة... وبقرة حلوب وخراف تصبح ولائم للضيوف "(شمدين، ٢٠١٩: ٩) ((Shamden, 2019: 256) وعن طريقه وصف المكان وسعته انعكس في ذهن الراوي واستخدامه لغة تحدد المكان. أما فيما يتعلق بالمتلقي الذي يتلقى جماليات المكان عبر الرواية فيعكس طابع نفسي مريح للمتخيل من سعة، وجدران عالية وحيوانات واستقبال للضيوف كل ذلك ساهم في إنتاج هذه الجماليات.

وقد اعتنى الراوي بتفصيلات المكان الذي يشعر فيه الإنسان بالطمأنينة والراحة وهو البيت الذي كانت تسكن فيه العائلة "اعتادت صالة الضيوف في المنزل على الزُحام واختنقت بالأقارب والمعارف.... خُصصت لمبيتهم غُرف الطابق الثاني الأربع ووضع أثاثها تحت خدمتهم، ومُدت لهم سخاء كبير وجبات الطعام اليومية الثلاث إبراز للجانب الكريم من شخصية الحاج مجيد لضمان كسب الوجاهة..."(شمدين، ٢٠١٩: ١٠) (Shamden, 2019: 256). فمدينة الروائي كانت حاضرة في رواياته بكل تفصيلاتها الكبيرة والصغيرة وهي صورة مصغرة عن وطنه الذي يشعر فيه بالأمام والطمأنينة على الرغم من الصعاب

التي مرَّ بها هذا البلد، فترك أثراً فاعلاً في شخصيته الذي انعكس بدورهِ على شخصياته المنتمية لمدينة الموصل العريقة.

ويبدو أن حياة الترف والرفاهية لم تبق لوقت طويل، تلك العائلة، فقد خيب القحط الآمال المعقودة على غلتي القمح والشعير وتراكمت الديون على المزارعين، فاضطرت العائلة إلى الاستغناء عن الماشية والحراس وإلى العمل بأجر يومي في ورشة حدادة يملكها شخص أرمني وانفردت الرواية بحضور الراوي العليم وتقديمه لأحداث الرواية وخاصة في صفحاتها الأولى وهذا لا يعني بأنه لم يعط للشخصيات حريّة التعبير ومنها شخصية جابر الذي يصف فرحة صديقه بعملهِ في المجتمع التجاري "وُسِّع المجمع التجاري قسم السراويل الداخلية... شاهدته يوم دعاني لافتتاح المكان بحلته الجديدة كم كان متألقاً وسعيداً بعمله المزدهر... وهو جالس على كرسي دوار في الوسط تماماً... وفي السقف مجموعة من المصابيح مختلفة الألوان يضاء كل واحد منها بحسب لون السروال... "(شمدين، ٢٠١٩: ١٢٨) (Shamden, 2019: 128)

فهذا المكان الفرعي كان ساحة لعرض الكثير من الأشياء منها الملابس والأثاث والألوان والمصابيح وكلها بينت حجم البهجة التي تشعر فيها الشخصية بالألق والراحة النفسية. وشخصية (جابر) الذي تدور حوله أحداث الرواية والذي يعاني من مرض يتم حقنه بدواء اسمه (ديسفرال) بأسم الرواية وهو مرض يلازم المريض طوال حياته بعد أن تحولت حياة العائلة السعيدة إلى حزن بسبب مرض (جابر)، ويحل المكان المعادي بدل الأليف في الرواية وتزور العائلة باستمرار المستشفى ويروي جابر عن مرضه الذي تجاوز توقعات الأطباء "تأخر موتي كثيراً. تجاوز أسقف توقعات الأطباء... مرت خمس سنوات على أقصى حدٍ يمكن لقلبي وكبدي المتضخمين بلوغه... اشتهرت خلالها في مركز التلاسيميا عميداً للمصابين وصاحب أكبر طحال ما زال يؤدي وظيفته على الرغم من تحوله إلى مقبرة منتفضة بكريات الدم الحمر المميتة "(شمدين، ٢٠١٩: ١٣٧) (Shamden, 2019: 137).

هذا الحديث النفسي الذي يدور داخل الشخصية يسهم في بناء الأحداث وينقل لنا حزنها وتمزقها الداخلي، فيصف لنا تجمع طلبة كلية الطب لدراسة هذا المرض "حولني لكل هذا إلى جثة مثالية لطلاب كلية الطب.. يتجمعون حولي مثل الذباب وأنا على كرسّي الجلدي لقضاء ساعات التزود بالدم الثقيلة والمملة. يقف الأستاذ المسن حامل كيس الدم ويبدأ الدرس مشيراً إلى أجزاء جسمي بمؤشر معدني طويل يتحدث باللغة الانكليزية والطلاب يدونون ما يقوله في سجلاتهم "(شمدين، ٢٠١٩: ١٣٨) ((Shamden, 2019: 138) وتصور

الرواية حجم التمزق والمعاناة التي تنتاب الشخصية وهي في مكانها المعادي أكثر مكان موحش مغلق يملئه المرض والألم وشفقة الأطباء وحزن الآباء وهم يترقبون شفاء أبناءهم.

ومن المكان المعادي إلى المكان المتخيل ينتقل الراوي إلى فسحة الأحلام التي يتحرك فيها جابر بحرية "أنا الذي في غرفتي كنت ما أزل مشلولاً ولا يتحرك مني سوى عيني.... وليد بخطواته الواسعة وأنا الآخر الذي كنت أسير خلفه بضفة طائر مرَّ توًّا من قفصهِ، لون بشرتي فاتح مثل بشرة أمي ولا أثر لندوب الابرقية وقامتي بطول فتى طبيعي في علمهِ الثالث عشر. انتهى الممر بقاعة واسعة على مد البصر" (شمدين، ٢٠١٩: ١٦٤) (Shamden, 2019: 164).)

استطاع الروائي أن يخفف عن الشخصية قليلاً بهروبها إلى عالم الأحلام بعيداً عن المكان المغلق الذي ترقد فيه فالحلم الذي راءه (جابر) يبعث في النفس الاطمئنان عبر رحلة عميقة إلى عالم آخر أكثر راحة من الواقع.

ويبدو أن الشخصية ليس لديها مكان تهرب إليه من المكان المعادي سوى الأحلام والذكريات التي مرّت بها فتمر ذكرياته على حبيبته (ليان) التي كان يزورها وهي تعمل في متجر للنباتات والزهور "أحستُ بألفة نحو المكان... صفُ من النباتات المتسلقة على عيدان فصلتي، رفعت شتلة مسك الليل وتساءلت مع نفسي عن المكان الذي نقلت إليه شجيرات الفكس بنجامينا وفكرت بسؤال المساعدة عنها... لكن ظهور ليان الساحر مثل فراشة ربيعية احبط خطتي... تنبعث الأشغال بمتابعة تدفق الماء من نافورة خزفية قريبة... "(شمدين، ٢٠١٩: ٩) (Shamden, 2019: 9)

وسعى الروائي (نوزت شمدين) إلى إيجاد علاقة بين الحلم والسرد فالحالم يخرج كل ما عنده من مكونات فضلاً عن اخراج مكنوناته الداخلية العميقة للشخصية من أحلام وشعور بالحب والألفة للحبيبة ووصف المكان بالزهور والنباتات وكلها تجلب الراحة النفسية ومن هنا توزعت رواية (ديسفرال) إلى عوالم منها الأماكن الأليفة والمعادية وعالم الرؤى والأحلام فضلاً عن عالم الذكريات المخزون في ذاكرة الشخصية، فالأمكنة التي ذكرها الراوي ما هي إلاّ مسرحاً منفتحاً للفعاليات الإنسانية وهي جزء من صيرورة الحياة لأي مجتمع، فقدم الروائي قصص لمدينة الموصل العريقة وانشأ علاقة بين المبدع والمتلقي رغبة منه في تقريب الأفكار بعد أن امتلك ادوات كتابة القصة بوعي يعلو مستواه عن مستوى القارئ، فنصوصهِ مليئة بأحاسيس وانفعالات قوية لكنها صادقة وجريئة واستطاع عن طريق تحريك الأحداث إلى جعل لرواياته تأثيراً كبيراً لأنها نصوص تفوح منها رائحة الألم والحرقة والحزن.

الخاتمة:

عمد الروائي (نوزت شمدين) إلى بناء أمكنة بما يتناسب مع شخصياته التي انتمت إلى مدينة (الموصل) وجدانياً وحسياً. شملت الروايات الثلاث (سقوط سرداب، وشظايا فيروز، وديسفرال):

١- الأماكن المفتوحة مثل المدينة، والشوارع، والقرية، فضلاً عن المكان الأليف البيت وتفصيلاته.

٢- الأماكن المعادية والمغلقة التي سيطرت عليها قوى الشر وغيبت وقتلت الشخصيات، ولم تستطع أن تحمي نفسها وشملت أماكن الحجر التي كانت سجن للشخصيات ومنها (السرداب، والغرف، والمستشفيات).

٣- الأماكن التاريخية التي تميزت بها مدينة الموصل العريقة من أثار قيمة غيبتها وسيطرت عليها قوى الشر مثل (منارة الحدباء، والثور المجنح).

٤- ظهرت شخصيات الروايات متعلقة بالمكان لأنهم من أبناء تلك المدينة الأصيلة التي ربطتهم بوجودهم وهويتهم وأصالتهم مما عكس لنا مظاهر تاريخية وحضارية واجتماعية.

المصادر:

- اوئيليه، وريال، بورنوف رولان (١٩٩١): عالم الرواية، تر: نهاد التكرلي، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الأولى، بغداد.
- باشلار، غاستون (١٩٨٠): كتاب الأقلام، تر: غالب هلسا، دار الحرية للطباعة.
- الخزعل، أحمد محمد، (دون تاريخ) العلاقة التفاعلية بين الإنسان والمكان، ميدان الكلمة، المجلة العربية، عدد ٥٤١: arabiomagazine.com
- السيد، وجيه يعقوب (٢٠١٣): مناهج النقد الروائي، آفاق للنشر، الطبعة الأولى، الكويت.
- شمدين، نوزت (٢٠١٩): رواية ديسفرال ، دار سطور للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بغداد.
- شمدين، نوزت (٢٠١٥): رواية سقوط سرداب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان.
- شمدين، نوزت (٢٠٠٧): شظايا فيروز رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان.
- العاني، د. شجاع مسلم (٢٠٠٠): البناء الفني في الرواية العربية في العراق، الوصف وبناء المكان، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الأولى، بغداد.
- عثمان، بدري (١٩٨١): بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ ، دار الحداثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت.
- قاسم، سيزا (١٩٨٤): بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- مرتاض، عبد الملك (١٩٩٨): نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، الطبعة الأولى، الكويت.
- موسني، حبيب (٢٠٠١): فلسفة المكان في الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب، الأردن.
- النصير، ياسين (١٩٨٦): اشكاليات المكان في النص الأدبي، آفاق عربية، دار الشؤون الثقافية، الطبعة الأولى، بغداد.
- هلسا، غالب (١٩٨٩): الرواية العربية، دار ابن ماتي، الطبعة الأولى، دمشق.
- يقطين، سعيد (١٩٩٧): البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت.